القصيدة الشعرية في صدر الإسلام بين القوة والضعف

The poem in the early Islamic period between power and weakness.

حمزة نايلي دواودة

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة العلامة الشيخ مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري، الجزائر

hamzanaili078@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2020/07/02	2020/11/02	2020/12/01

مُلخّصُ البَحث

يهدف المقال إلى الوقوف على خصائص الشعر في عصر صدر الإسلام لبيان مدى قوة الجانب الفني للقصيدة وضعفه في مجتمع يمكن القول إنه يكاد يكون فيه النثر شعراً و لا يمكن له أنْ يضعف إذا جاء الإسلام الذي هذّبه، وأشاع فيه مواضيع جديدة كلّ الجدّة مرتبطة بالحياة الجديدة ، حياة الفكرة الصالحة؛ فانشكمت فورة المفاهيم القديمة في الشعر وبرزت الفكرة الدينية ، واختلف الشعر فكراً ومضموناً عن الشعر الجاهلي، وإذا دققنا النظر في التجديد عموماً نجد أنّ التداخل بين القديم والحديث لا يمكن إغفاله، فلا يوجد فصل بين الجديد والقديم. ممّا يعطي الانطباع بتأخّر الشعر أو ضعفه، ومتبعين في ذلك المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية: الشعر؛ عصر صدر الإسلام؛ القوة؛ الضعف؛ الخصائص الفنية.

Abstract

The article aims to identify the characteristics of poetry during the first yaers of islam as well as the strong and weak side of the artistic aspect of poetry in a society where prose can be as poetry and which has not been weakened by the advent of islam. this new religion cames in order to improve it .new themes were appeared that have relation with the new life also the ancient terms declined in poetry. Islamic and pre-islamic one are different however there is a great relation between them (islamic poetry keeps old traces) which demonstrate the progress of poetry, using the descriptive analytical type.

Keywords: the poetry, the era of early Islam, the power, the weakness, the artistic characteristics

تقديم:

1.مقدمة: إن ما تتصف به التحولات اليومية في مظاهر الحياة الاجتماعية لا تخرج عن نطاق السهولة و البساطة ، على عكس ما نجده في المجال الفني و الأدبي لأنه متعلق بموروثات متأصلة على مر العصور، فليس من السهل أن يتخلى الشاعر عن أسلوبه الفني ، و يتخذ آخرا، وهو ما حدث في التحول الأدبي للشعراء من العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي ، فكيف نظر النقاد القدامى والمعاصرون إلى هذا التحول الشعري ؟ ، وهل يعد تحولا من القوة إلى الضعف الأدبي أم لا؟ ، لعل هذا ما نحاول الإجابة عليه في مقالنا .

2. رأي النقاد العرب القدامى في ضعف الشعر في صدر الإسلام من عدمه:

نلاحظ أنّ بعض النقاد العرب في القرنين الثاني والثالث الهجريين قد أطلق أحكاما و آراء يستنبط من ظاهرها ضعف الشعر بعد ظهور الإسلام و الموقف السلبي للإسلام من الشعر والشعراء، فنقوم في هذا الجزء بدراسة و تحليل آراء هؤلاء النقاد.

ويبدو أن بعض النقاد العرب القدامى ركزوا على موضوع الكم لا على الكيف، فرأوا أن الضعف منصب على هذه الزاوية، غير أن منهم من عرض للجانب الفني ، ونلمس هذا الموقف النقدي والقائل بضعف الشعر في صدر الإسلام من خلال ما قاله الأصمعي حينما علق على شعر حسان بن ثابت حين مقارنته شعره في الجاهلية والإسلام حيث وصف شعره الإسلامي بالليونة والضعف بسبب دخوله في باب الخير ، فهو يقول : «طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير، لان. ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم، لان شعره، وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار، فإذا أدخلته في باب الخير، لانَ». [1]

ولكن ثمة فرق بين اللين والضعف، فلعل المقصود باللين الرقة والسهولة نقيض الجزالة والحماسة، وربما يكون هذا ما عناه الأصمعي ، فاللين هنا سمة أسلوبية حضارية، وهذا يفسر عطفه السهولة على اللين.

فقد عالج الأصمعي هنا مسألة خطيرة، حيث أكد أنّ شعر حسان قد ضعف بعد إسلامه لتركه ما كان يخوض فيه في الجاهلية من شعر الحماسة والتشبيب والخمر والفتوة والهجاء، أو الأغراض التي يضمها معنى «الشر» واهتمامه بعد إسلامه بشعر التقوى والمعاني الأخلاقية ورثاء المسلمين أو الأغراض التي يضمها معنى «الخير». [2]

إلاّ أنّ الذي قاله الأصمعي يحط من قيمة الإبداع الفني ويفسح المجال أمام الشر ويوهم بأنّ من شروط فحولية الشاعر هو البعد عن قول الخير والإكثار من قول الشر، وهذا يتناقض مع الواقع والشرع القويم، ومع

ما قام به الأصمعي نفسه من رواية كثير من الشعر الدّاعي للخير الذي قاله بعض شعراء الجاهلية مثل زهير بن أبي سلمى، واعتبارهم من فحول الشعراء في مقولته حول شعر حسان، وحتى إنّ أصمعياته ليست حاملة للشر فقط بل فيها الكثير من الخير.

والصواب أن ما ذهب إليه الأصمعي في تعليل ليونة شعر حسان وضعفه غير صائب ولعله يقصد من الليونة أنّ الشاعر تخلى عن بعض ما في الشعر الجاهلي من غرابة اللفظ ووعورة الأسلوب الذي اشتهر به الأصمعي، وأنه إذا كان هناك ضعف أو ليونة فإن ذلك لا يرجع إلى دخول شعره في باب الخير وإنما يرجع إلى «أنّ انتقال الشاعر بين مرحلتين وطريقين يمثل تغيرا نوعيا في فنه وأمامه صعاب كثيرة تحتاج إلى تذليل ».[3]

ثم إن الشعر يحمل الغث والسمين والحكم على الشعر ليس من ناحية مضمونه بل نحكم عليه من عدة جوانب كالجانب اللغوي والفني والشكلي، وأيضا الرواية لم تثبت عن الأصمعي، وإذا ثبتت فالأصمعي كغيره من البشر يؤخذ كلامه ويرد. وكذلك يرد عليه بقصيدة حسان لوفد تميم حيث كانت تعد من عيون الشعر في عصر صدر الإسلام، كما أن الجهاد أحد الفروض في الدين الإسلامي و قد ثبت بالكتاب و السنة، من خلال حث النبي صل الله عليه وسلم على الجهاد بالقول و الفعل ، وبما أن الشعر كان لصيقا بالحياة الاجتماعية فهو لم يكن بعيدا عن الصراع حتى أنه يمكن القول أنه كان المحفز للكثير من المعارك في بعض الأحيان، و كان من نتائج ذلك بروز المناقضات بين الشعراء المسلمين و المشركين وتعتبر الأحداث الكبرى في تلك الفترة من أهم عوامل ازدهار الشعر و ظهر الطابع الديني في شعر الشعراء المسلمين أكثر، و أضحى الشعر سجلا لتصوير المعارك و الغزوات ، و من أهمها غزوة بدر الكبرى .

والملاحظ قول القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في الرد على من انتقص أبا الطيب المتنبي وغض من شعره الأبيات يجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد الديانة ، حيث يقول : « فلو كانت الديانة عارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر، لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد عليه الأمة بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعري وأضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وعاب من أصحابه، بكما خرسا وبكاء مفحمين، ولكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر».[4]

وقد فهم بعض النقاد من كلام الجرجاني هذا وخاصة من قوله « والدين بمعزل عن الشعر»، التعارض بين الدين والشعر بمعنى أن الدين شيء والشعر شيء آخر ولا علاقة بينهما، كما ادعى بعضهم أن هذا الكلام ينفي أي التزام إسلامي في الأدب.[5]

ولكن إذا تأملنا جيدا مقولة القاضي الجرجاني والظروف التي قالها فيها ، نرى أنه يؤكد أن الاعتقاد الفاسد أو الكفر والخروج على الدين و العرف الأخلاقي، لا ينفي شعرية الأدب ولا ينزل من منزلة الشاعر الأدبية ، لأن القاضي الجرجاني كان يتعجب ممن ينتقص من شاعرية المتنبي لأنهم وجدوا في شعره أبياتا تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة، مع أن هؤلاء أنفسهم يقرون بالشاعرية لأبي نواس وعنده ما هو أشنع وأفظع وأصرح في سوء الاعتقاد والخروج على الدين، فكيف يكون أبو نواس عندهم شاعرا ولا يكون أبو الطيب المتنبي شاعرا محيدا[6] ، وفي الحقيقة ليس فيما قاله القاضي الجرجاني وغيره من النقاد القدامى الذين أشرنا إليهم سابقا ما يدل على فصل الإسلام عن الأدب ووجود التنافر بينهما، لأهم إنما يتحدثون عن قضية فنية يردون بها على أولئك الذين ينفون الشاعرية عن الشاعر بسبب انحراف شعره ويؤكدون أن انحراف الشاعر الخلقي والديني لا ينفي عنه صفة الشاعرية [7]، كما أنّ إيمانه القوي و التزامه الخلقي والديني لا يقوي من شاعريته شيئا.

ونقل محمد بن سلام الجمحي عن عمر بن الخطاب أنّه قال: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه» [8]. ثم علق على قوله وقال: «فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد، وغزوا فارس والروم وفيت عن الشعر وروايته. فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت بالأمصار، راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره ».[9]

ولعل ابن سلام يقول ذلك ليدل على أن شعر عربية كثيرة ضاع من يد الزمن، أما قوله بأن العرب لهت عن الشعر وشغلت عنه بالجهاد فينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه[10] ، وقد ترددت هذه المقولة فيما بعد على ألسنة النقاد واستنتجوا منها ركود الحركة الشعرية وضعفها في عصر صدر الإسلام، حيث أكد ابن خلدون في مقدمته على ما ذهب إليه ابن سلام وقال: ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا، ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسمعه النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وأثاب عليه، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه».[11]

فإن كان يريد ابن خلدون توقفهم عن الشعر مدة نزول الوحي عصر النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، فإن ذلك لا يصدق على الشعراء المشركين، لأنهم لم يتشغلوا بأمر الدين والوحي والنبوة، ومعروف أن جمهور القبائل العربية إنما دخل في الإسلام بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، فإن انصرافهم إنما كان لمدة سنتين أي إلى أن انتقل النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إلى الرفيق الأعلى، ولكن ابن خلدون ينقض ما قاله في أول كلامه بما قال في آخره، حيث قرر أن الوحي لم يحرم الشعر وسمعه النبي صلى الله

عليه وآله وصحبه وسلم وأثاب عليه[12]، وهو نفسه قد قرر في موضع آخر من مقدمته أن كلام الإسلاميين من العرب في منظومهم و منثورهم أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين وعد شعر حسان والحطيئة الإسلامي أعلى طبقة من شعر فحول شعراء الجاهلية من مثل النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد[13]. ثم يعلل هذه الظاهرة بقوله: «أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام، سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث، الذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها»[14]. غير أن انبهار الناس بأسلوب القرآن، ولكن لم يشغلهم عن الشعر لوجود طائفة من الشعراء منهم شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم.

فالسبب في تفوق الأدب الإسلامي على الأدب الجاهلي يعود إلى المرجعية التي صنعت الذوق العربي الجديد، وأنشأت الأسلوب الراقي والفكر العميق، ولم تكن هذه المرجعية إلاّ القرآن والحديث الذين بلغا مبلغا عظيما من الجمال أعجز أهل الفن منذ ذلك الزمان إلى اليوم.[15]

ولكن لا يفوتنا أن نشير إلى هذه اللفتة الذكية من ابن خلدون حين فصل بين القول القائل أنّ الإسلام حرم الشعر والقول القائل أن الشعر ضعف بذاته، وهذا يدل على أن ابن خلدون لا يرى أن الإسلام هو الذي أضعف الشعر ولكن الشعر قد ضعف لأنّ النّاس تشاغلوا بالدّعوة الكبرى.[16]

3. رأي النقاد العرب المعاصرين في ضعف الشعر في صدر الإسلام من عدمه:

وقد استغل أدونيس موقف النقاد القدامى لإثبات التنافر بين الفن والخير، والتعارض بين الشعر والدين والأخلاق، فقال أدونيس معلقا على قول الأصمعي: «والشاعر الفحل - إذن - في نظر الأصمعي هو الذي لا يصدر في شعره عن الدين والأخلاق، وتبعا لذلك نستطيع القول إن الأصمعي لا يحبذ الشعر التبشيري، أو الشعر الإيديولوجي »[17]، إلا أن قوة الشعر وضعفه وشدته ولينونته لا ترجع إلى وجهته من خير أو شر، وإنما ترجع إلى طبيعة الشاعر وموهبته وصدق عاطفته ووضوح رؤيته في موضوعه شرا كان أو خيرا، وكما تنفعل النفوس بعوامل الشر، تنفعل بعوامل الخير، وقد يصل انفعالها بأسباب الخير أقصى درجاته فيرتفع شعرها فيه إلى أسمى ذرواته.[18]

وقال جرجي زيدان في هذا الباب : «أكثر شعراء الجاهلية من الفرسان والأمراء وأهل الحرب، وأكثر أشعارهم في الفخر والحماسة ما بين قبائلهم من التنازع، و مرجع ذلك كله إلى العصبية ، كل قبيلة تطلب الفضل لنفسها على سواها. فلما جاء الإسلام وجمع كلمة العرب وذهبت العصبية الجاهلية، لم تبق حاجة إلى الشعر أو الشعراء، ناهيك باشتغال أهل المواهب والقرائح بالحروب في الجهاد النشر الإسلام و بالأسفار، وقد أدهشتهم

أساليب القرآن، وكرم النبوة وانصرفت قرائحهم الشعرية إلى الخطابة لحاجتهم إليها في استنهاض الهمم وتحريك الخواطر للجهاد».[19]

فقد ادعى جرجي زيدان أن تحول الشعر عن روحه ومشربه ومضامينه الجاهلية من عصبية وفخر بما بين القبائل ومن تنازع وهجاء مقذع ومدح باطل إلى مضامين جديدة إسلامية، واشتغال أهل المواهب والقرائح بالجهاد وانبهارهم أمام أساليب القرآن والسنة النبوية كل ذلك أدى إلى ضعف الشعر في صدر السلام و نزوله عن أفقه الواسع وإصابته بالضيق والانقباض. كما ادعى أنه لم تبق حاجة إلى الشعر والشعراء بذهاب روح العصبية وانصرفت قرائحهم الشعرية إلى الخطابة لحاجتهم إليها في استنهاض الهمم للجهاد، أما قوله بأن تحول الشعر عن مضامينه الجاهلية من عصبية وفخر أدى إلى ضعف الشعر فغير صحيح، لأن الشعر هو التعبير عما يختلج في نفس الشاعر و كما أنّ المضامين الجاهلية تختلج في نفس الشاعر، يمكن أن تمتلئ نفسه بالمضامين الإسلامية الواسعة أيضا، وقضية انشغال المسلمين بالجهاد غير صحيح أيضا، لأن الجهاد في سبيل الله والفتوحات الإسلامية من الروافد التي فجرت قريحة الشعراء وأمدت الشعر الإسلامي بالمعاني والأفكار والأغراض الجديدة.

وأما القول بانبهار الشعراء أمام أسلوب القرآن وتوقفهم عن قول الشعر فلا تؤيده الأدلة والواقع « لأن القرآن الكريم كتاب عقيدة وليس وسيلة لسحر العقول بحيث تمنع الشعراء من أن يقولوا الشعر، بل إن هذا القرآن خليق بأن يفتح أبوابا للشعراء ينفذون من خلالها إلى آفاق رحبة فسيحة الأرجاء»[20]. والمنتج الشعري للشعراء المسلمين الملتزمين بالمضامين القرآنية وأساليبها يؤيد هذا الموضوع.

ونرى في آخر فقرة من كلام جرجي زيدان تناقضا واضحا، حيث يدعي أن المسلمين لم يكن لهم حاجة إلى الشعر والشعراء بعد ذهاب روح العصبية الجاهلية ولكن كانوا محتاجين إلى الخطابة والخطباء لاستنهاض الهمم وتحريك الخواطر للجهاد، وواضح أنّ تأثير الشعر والشعراء في هذا المجال أكثر وأشد فيكون احتياجهم إلى الشعر والشعراء أكثر من احتياجهم إلى الخطابة والخطباء.

فَفَنُ الهجاء في الشعر الإسلامي كان نشطا منذ بداية الدعوة الإسلامية تارة بين المشركين و المسلمين ، و كان يغلب على أهاجيهم الأسلوب الجاهلي تزركشه بعض الألفاظ و المعاني الإسلامية و التي أخذت مع الزمن تنموا شيئا فشيئا حتى عصر بني أمية. [21]

هذا وأسهب الدكتور شكري فيصل في التأكيد على فكرة ضعف الشعر وقال: «إن شعر صدر الإسلام هو النهاية الضعيفة الذابلة والمنحرفة للشعر الجاهلي وهو يمثل عقابيل المعركة بين الحياة الإسلامية وبين الحياة الجاهلية، فأما الشعراء الذين سكتوا فقد وجدوا في القرآن الكريم أو في غيره تعويضا عن حياتهم الفنية الأولى وأما الشعراء الذين ظلوا يقولون الشعر فقد كانوا يحاولون الصحوة من أثر الدهشة التي جابهم بما إعجاز القرآن كما كانوا يحاولون التكيف مع هذه الحياة الجديدة والانسياق في مفاهيمها».[22]

فشكري فيصل في حكمه على شعر صدر الإسلام يقارن الشعر الإسلامي بالشعر الجاهلي ويقتصر على شعراء المسلمين و يتناسى شعراء المشركين في هذه المرحلة، مع أنه لابد أن يأخذ بعين الاعتبار الأمور التالية في تقويم شعر صدر الإسلام:

أ- لا مجال للمقارنة بين الشعر الجاهلي و الشعر في صدر الإسلام من ناحية الكم والكيف، لأن الشعر الجاهلي قيل على مدى مائة وخمسين عاما على الأقل وله تجربة طويلة بينما لا تزيد مدة صدر الإسلام بتجربته الجديدة عن أربعين سنة،و لا ينبغي الاقتصار على دراسة شعراء المسلمين بل يجب تجاوزهم إلى دراسة شعراء المشركين أيضا في هذه المرحلة.

ج- حفلت الفتوحات الإسلامية بشعر حماسي رائع لم يهتم بجمعه مؤرخو الأدب مع أنه يمثل جانبا مهما لا ينبغي إغفاله عند تاريخ شعر صدر الإسلام ورصد اتجاهاته ومحاولة مقارنته بالشعر الجاهلي.

إنّ هناك مجموعة ضخمة من الشعراء لم تهتم بهم كتب الأدب ولم ترو أشعارهم، ولكن نجد الكثير من شعرهم في كتب طبقات الصحابة. وتسليط الضوء على هؤلاء وعلى شعرهم، سيكون له فائدة كبيرة في تقويم شعر ذلك العصر.[23]

وأيد نجيب محمد البهبيتي نظرية ضعف الشعر في صدر الإسلام ولخص دلائلها قائلا: «ضعف الشعر في صدر الإسلام نظرية صحيحة، والعرب قوم ذوو لسن وذوق قولي ممتاز فلم يلبثوا أن أخذهم القرآن بجماله...، فشغلوا بالقرآن و سكت الشعراء ليستمعوا إلى كلمة الله ... ثم إن تشبيه مشركي قريش النبي بالشاعر، ورفع القرآن نفسه عن هذا المعنى، جعل الناس ينظرون إلى الشعر على أنه تقليد جاهلي، فأصابه ما أصاب جميع التقاليد الجاهلية التي حاربها الإسلام، وكأنما كان الناس ينظرون إليه نظرهم إلى أثر وثي العصر ذهب بكل أثقاله وبذكرياته الدامية الرهيبة، و ساعد على إضعاف الشعر أيضا أن أعداء الإسلام كانوا يحاربونه بالشعر فلما عم الإسلام كانت كراهة هذا الشعر قوية في نفوسهم فتناسوه وامتنعوا عن رواية ما كان منه من هذا القبيل. وللتي في ذلك أحاديث مشهورة لا داعي لترديدها. كما ساعد على إضعافه أيضا أنه كان قد أخذ في العهد السابق للإسلام مباشرة يتجه إلى نوع من التفكير جار حول العقائد والدين، والشعر إنما يذهب هذا المذهب في طور شيخوخته فأرخصه ذلك وحطه عن مستواه القدم من ناحية و أوقف موقف المخالفة في الإسلام من ناحية أخرى» [24].

وذكر البهبيتي لإثبات قضية ضعف الشعر في صدر الإسلام إضافة على ما قاله جرجي زيدان و شكري فيصل الأدلة التالية:

أ- أن المشركين وصفوا الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالشاعر وربطوا بين النبوة والشعر مما جعل القرآن الكريم يره نفسه عن أن يكون شعرة ويتره الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عن أن يكون شاعرا واعتبر الشعر تقليدا جاهليا انصرف عنه الناس كما انصرفوا عن بقية التقاليد الجاهلية.

ب- حورب الإسلام من جانب أعدائه بالشعر فأصبح الشعر منفورا عند المسلمين.

ج - اتجاه الشعر إلى التفكير العقائدي قبيل ظهور الإسلام حطه عن مستواه القديم وجعله في موقف المعادي للإسلام.

أما بالنسبة للأمر الأول فليس في تنزيه القرآن الكريم نفسه أن يكون شعرا أو أن يكون الرسول شاعر، طعن على الشعر ولا غض من قيمته كما أن إخراج الرسول من دائرة القارئين الكاتبين لا يغض من أمر القراءة والكتابة شيئا، بل هو إقرار الأمر ثابت لاشك فيه، لأن القرآن الكريم صورة بيانية فريدة تبعد كل البعد أن تكون شعرا أو سجعا كسجع الكهان، وكان المشركون من العرب يريدون التهوين من شأن معجزة الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فيصفون القرآن بالشعر و الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالشاعر فجاءت الآيات في الرد على ذلك.[25]

وأما محاربة الكفار للإسلام بالشعر فلم ينفر المسلمين من الشعر من حيث هو شعر بل نفرهم من نوع معين من الشعر كان يؤذي الله ورسوله وهذا ما حمل المسلمين أن يحاربوا الكفار بنفس السلاح فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لحسان بن ثابت: «أهجهم فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام، أهجهم ومعك جبريل، روح القدس»[26]. وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم على شعراء الإسلام وقدر دورهم في محاربة الكفار فقال: « هؤلاء النفر أشد على قريش من تضح النبل ».[27]

وأما ما ذهب إليه الأستاذ البهبيتي من أن سبب نزول الشعر عن مستواه هو انصرافه إلى العقائد فلا نستطيع أن نؤيده، لأنه لم ينصرف إلى هذا الاتجاه إلا أمية بن أبي الصلت و أبيات قليلة لبعض الشعراء، ولا نسلم أن موضوع الشعر يضعفه، لأن موضوعات الشعر كلما تشعبت أعطت الشاعر مجالا أوسع كي يعبر عن خلجات نفسه.[28]

أما شوقي ضيف فيرفض القول بهبوط المستوى الفني لشعره الإسلامي و ليونته و ينسب ما يلاحظ عليه من ضعف إلى اختلاط شعره بأشعار الأنصار وكثرة الوضع عليه، فيقول في ذلك: «و نظن ظنا أن شعره اختلط بأشعار الأنصار ... والحق أن شعر حسان الإسلامي كثر الوضع فيه، و هذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة و من هلهلة، لا لأن شعره لان و ضعف في الإسلام كما زعم الأصمعي»[29] ، والجدير بالذكر أنّ الأصمعي نفسه قد أكد على وجود الوضع و الانتحال في شعر حسان و نسب الليونة في شعره إلى هذا الوضع و الانتحال. فقد جاء في كتاب الاستيعاب : «و قال الأصمعي: حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء، فقال له أبو حاتم: تأتي له أشعار لينة، فقال الأصمعي: تنسب إلى أشياء لا تصح عنه».[30]

فشوقي ضيف يعتبر القول بركود حركة الأدب و ضعف الشعر في صدر الإسلام ظلما في حق الإسلام و يعتقد أن الإسلام قد أذكى جذوة الشعر و أشعلها فيقول: «ومن الظلم للإسلام أن يقال إنه كف العرب عن الشعر و وقف نشاطه، فقد كان ينشد على كل لسان، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله... و لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكى جذوته و أشعلها إشعالا»[31]

فكما قال محمد قطب يرجع إلى أنه «قد كانت العقيدة الجديدة في الواقع تنشئ النفوس إنشاء جديدا، كانت تغسل النفوس من أدران الجاهلية ومن موروثاتها القديمة كلها ومن مفاهيمها المنحرفة ومن تصوراتها الخاطئة، وتملأ الفراغ الحادث أولا بتصورات جديدة ومفاهيم جديدة ومشاعر جديدة وسلوك وعمل جديدين، ومن ثم لم يكن الرصيد القديم صالحا للإيجاد الفني، فقد كان غير موجود في النفوس التي استجابت للدعوة الجديدة، فنفضت عن نفسها كل تراث قديم و انسلخت من كل ما يربطها ماضيها الجاهلي، من مشاعر و أعمال ووشائج قربي، وصارت تحس نحوه بتفرة وتقز، ولم يكن الرصيد الجديد قد تجمع بعد في الصورة التي تصلح للأداء الفني الذي يعبر - كما قلنا - عن شحنة مذخورة تريد الانطلاق، لا عن الشحنة في دور التكون، قبل أن تمتلئ بها النفس ثم تفيض بالتعبير».[32]

4. رأي المستشرقين في ضعف الشعر في صدر الإسلام من عدمه:

كانت هذه آراء بعض النقاد المحدثين حول قضية ضعف الشعر في صدر الإسلام و وجود التنافر بين الإسلام و الشعر، وهناك من المستشرقين من رفضوا القول بركود حركة الأدب و ضعف الشعر في صدر الإسلام و أكدوا على أن حركة الأدب و فضة الشعر قد استمرت بعد الإسلام. حتى وإن أكدّ بروكلمان على كراهية الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم للشعر و الشعراء، و ذهب إلى أن اعتماده على الشعراء الإسلاميين كان لاحتياجه إلى شاعر يجيب على شعراء القبائل و قال: «حقا كان رسول الله شديد الكراهية للشعر و الشعراء و لكنه كان محتاجا إلى شاعر يجيب على شعراء وفود القبائل التي كانت تفد كثيرا على المدينة معلنة دخول قبائلها في الإسلام» [33] ، وهذا الذي قاله بروكلمان يتنافى مع موقف الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم من الشعر و الشعراء، لأنه لو كان الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم شديد الكراهية للشعر و الشعراء، لكان إصغاؤه إلى الشعراء و تشجيعه لهم و دعوته إياهم لنصرة الإسلام غير مفهوم، و لكان مسلكه حيال حسان بن ثابت و كعب بن زهير و عبدالله بن رواحة و غيرهم ممن دافعوا عنه بألسنتهم مناقضا لموقفه من الشعر و الشعراء ، و يصف صاحب كتاب الغدير شعراء الصحابة بما ينفي مزاعم بروكلمان حيث يصفهم بأسود ضارية تفترس أعراض الشرك، و صقور جارحة تصطاد الأفئدة و المسامع، و فرسان هيجاء معهم حسام الشعر و نبل القريض، يجادلون دون مبادئ الإسلام و يجاهدون بألسنتهم في سبيل الله. ثم يذكر من بين الصحابة اسم عشرين شخصا من الشعراء و ثلاث عشرة من الشاعرات. [34]

إلا أن المستشرق الإيطالي كارلو نالينو يقول رافضا قول ابن سلام و ابن خلدون السابق حول انشغال العرب عن الشعر و روايته و سكوتهم عن الخوض في النظم و النثر في صدر الإسلام و يتناقض مع رأي بروكلمان : «هذان القولان لا يوافقان حقيقة الأمر البتة... فإذا طالعتم كتب التاريخ المطولة، مثل سيرة الرسول الابن هشام، و كتاب المغازي للواقدي، و طبقات ابن سعد و تاريخ الطبري، وجدتم كثرة ما يرددونه من أشعار صدر الإسلام. ثم إذا تصفحتم كتب الآداب القديمة، مثل الأغاني وغيره، ألقيتم أن الآداب العربية لم تزل في ذلك العصر زاهية، و أن الشعراء لم ينصرفوا عن أنواع قريظهم ».[35]

و الحق أن من أهم التطور في الشعر العربي حينذاك تبلور تلك اللغة الإسلامية الحضرية بأساليبها وألفاظها بعد أن مرت بمراحل من التطور التدريجي بدأت في تلك المرحلة التي ندرسها ثم اتضحت معالمها في العصر الأموي...[36]

5. خاتمة: يمكن القول واعتماد على آراء النقاد القدامى والمعاصرين والمستشرقين أنه بمجيء الإسلام تراجعت مكانة الشعر وذلك مع بداية الدّعوة الإسلامية وذلك بسبب انشغال الشعراء عن الشعر وتفرّغهم إلى القرآن الكريم الَّذي بهرهم بيانا وبلاغة، إن النقاد الذين وصموا هذا الشعر بالضعف كانوا من رواة اللغة وحفظة الغريب، فكانوا يحكمون على الشعر الإسلامي بمقاييس الشعر الجاهلي، وكان موقف القرآن الكريم والرّسول صلى الله عليه وسلم والصّحابة رضوان الله عليهم موقفا مؤيدا لرسالة الشُعراء المسلمين؛ الذين مثّلوا رمح الكلمة في ذلك العصر فشجعه الرّسول صلى الله عليه وسلم و أمر به؛ كما كان أغلب الصحابة شعراء دافعوا عن الإسلام بشعرهم، و الملاحظ هنا هو شدة تأثير العقيدة الجديدة على شعراء صدر الإسلام.

إحالات البحث

1 محمد بن عمران المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، جمعية نشر الكتب العربية، ، القاهرة، 1343هـ ،ص 12 .

2 محمد مصطفى هدارة، الالتزام في الأدب الاسلامي (ضمن بحوث ندوة الأدب الإسلامي)، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، 1992م ، ص184.

3 سليمان الشطي، الإسلام والإبداع الشعري، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الرابع عشر، العدد الرابع 1/1/ 1984 م، ص172

4 علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العربية، مصر، 1951، ص ، ص22.

5 محمد مصطفى هدارة، الالتزام في الأدب الاسلامي (ضمن بحوث ندوة الأدب الإسلامي)، ص184.

6 أحمد محمد علي، الأدب الإسلامي ضرورة ، دار الصحوة، القاهرة ، ط1، 1411هـ – 1991م ، ص90.

7 عبد الرحمن صالح العشماوي، علاقة الأدب بشخصية الأمة، مكتبة العبيكان، الرياض ، ط1، 1423هـ –2002م.، ص 119.

8 محمد بن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دار الكتب العلمية، ، بيروت ، لبنان، 1422هـ -2001م، ص34.

9 المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

10 شوقي ضيف، العصر الإسلامي، دار المعارف ، القاهرة ، ط16، 1996، ص 44.

11 عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب ، دمشق ، سوريا ، ط1، 1425هـ. 2004م،ص 581.

[12] شوقي ضيف، العصر الإسلامي ، ص 43.

[13] عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، عبد الله محمد الدرويش، ص 580-579.

[14] المصدر نفسه ، ص 580.

[15] أحمد رحماني، النقد الإسلامي المعاصر بين النظرية والتطبيق، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، الرياض ، ط1، 1420 هـ - 2000م ، ص80.

[16] سليمان الشطي ، الإسلام والإبداع الشعري ، ص146.

[17] أدونيس، الثابت والمتحول، ج 2، دار الفكر، بيروت ، لبنان، ط5، 1406هـ - 1989م، ص41.

[18] أسامة يوسف شهاب، نحو أدب إسلامي معاصر، عمان، دار البشير، 1980م. ، ص112.

[19] جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج 1، دار الجيل، بيروت ، لبنان، 1402هـ - 1982م.، ص 295، 296.

[20] سليمان الشطي ، الإسلام والإبداع الشعري ، ص 189.

[21] واضح الصمد ، أدب صدر الإسلام ، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر، بيروت ، لبنان، ط1، 1993 ، ص 138.

[22] شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، 1959م.، ص 190.

[23] محمد مصطفى هدارة، الالتزام في الأدب الاسلامي (ضمن بحوث ندوة الأدب الإسلامي)،ص73.

[24] نجيب محمد البهبيتي، تاريخ الشعر العربي حتي آخر القرن الثالث ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 1970، ص113، 114.

[25] محمد مصطفى هدارة، الالتزام في الأدب الاسلامي (ضمن بحوث ندوة الأدب الإسلامي)، ص74.

[26] ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج1، بتحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت . لبنان، 1422هـ -2001م، ص33.

[27] المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

[28] سليمان الشطي ، الإسلام والإبداع الشعري، ص 199.

[29] شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص80، 81.

[30] يوسف بن عبدالله بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ط1، 1995م، ص403.

[31] شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 46.

[32] محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية الخامسة، 1408هـ -1987م،ص 6 ، 7.

[33] كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج1، تعريب عبد الحليم النجار، دار المعارف ، القاهرة ، ط5، ص102.

[34] أحمد الأميني النجفي، الغدير في الكتاب والسنة والأدب ، ج2، دار الكتاب العربي ، بيروت . لبنان ، ط3، 1967، ص 19.

[35] حبيب يوسف مغنية، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، دار و مكتبة الهلال، بيروت ، لبنان، ط1، 1990م ص 92، 93.

[36] عبد القادر القط ، في الشعر الإسلامي والأموي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان،1987 ، ص 19.